الفصل الخامس:

الفكر واللّغة

مقدمة:

مهارات اللغة أربع هي: الاستماع، والكلام، والقراءة، والكتابة، ولا يمكننا أن نتخيل كاتباً كتب شيئاً عن الفكر، دون أن يفكر فيه؛ أي دون أن يمرَّ تفكيرُه في واحدة أو أكثر من مهارات اللغة المشار إليها.

ويرتب اللغويون هذه المهارات الأربع بالترتيب المشار إليه من حيث بناء هذه المهارات وتطورها عند الإنسان، في بنائه لجهازه اللغوي، والفكري. ولا خلاف على أن الاستماع والقراءة وسيلتان لتطوير البنية الفكرية عند الإنسان، لكننا لا نعرف عن وجود هذه البنية إلا عندما يتحدث الإنسان أو عندما يكتب.

واللغة هي القالب الذي ينصبّ فيه الفكر، والفكر هو المضمون الذي يحتويه ذلك القالب اللغوي، والمضمون يأخذ شكل القالب ويتحدد بحدوده في وضوحه وجودته أو غموضه ورداءته، مع ذلك فإنَّ مما لا شك فيه أن علاقة اللغة بالفكر علاقة تبادلية وتكاملية؛ تبادلية من حيث إنَّ أحدهما يؤثر في الآخر، وتكاملية من حيث إنَّ أحدهما يحتاج إلى الآخر، فمقدار غنى أحدهما يكون إغناء الآخر، وكل منهما يسهم في إغناء الآخر، فاللغة تخدم الفكر حين تعين الإنسان على التعبير عن فكره وإخراجه إلى حيز الوجود اللغوي،

فتصبح الفكرة موضوعاً للتواصل. وفي الوقت نفسه يخدم الفكر اللغة حين يعينها على اختيار اللفظ الأكثر دقة وتعبيراً على المعنى، ويغني اللغة بالمعاني والدلالات التي تحتاج إلى ألفاظ ومصطلحات جديدة، فالفكر يصنع اللغة، ويصنع نفسه بها.

أولاً: البعد التّاريخي لعلاقة الفكر واللغة

يبدو أن الاهتمام بعلاقة الفكر واللغة يعود إلى عهود سحيقة من تاريخ البشرية، فإذا أخذنا بالمصادر الدينية، يكفينا أن نتفكر فيما ورد في القرآن الكريم، الذي يشير إلى هذه العلاقة بصورة مباشرة في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. والله سبحانه ذكر حقيقة خلق الإنسان، وأتبعه مباشرة بحقيقة تعليمه البيان، في آيتين متتاليتين: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ – ٤] كما ربط سبحانه اللسانَ بالبيان في آية واحدة، هي قوله جلّ جلاله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

أما في المدونات البشرية للتاريخ، فإنّ ثَمَّة نصوصاً مهمة ترجع إلى عهد سقراط وأرسطو، ومن جاء بعدهما من فلاسفة اليونان والرومان. تناقش أسئلة تقليدية منها: أصل اللغة وانتظام اللغة، وبنية اللغة. وحتى اللفظ (logos) الذي اشتهر في تاريخ الفكر الغربي، فإنه استخدم ليدل في الوقت نفسه على اللغة والعقل والفكر.[1]

(1) Haris, Roy and Taylor, Talbot. *Landmarks In Linguistic Thought*, Volume I: The Western =

وفي التراث الإسلامي فيض من النصوص التي تتحدث عن أصل اللغة البشرية وعلاقتها بأشكال التفكير والفهم والإدراك، والتفاصيل الدقيقة في بنية اللغة العربية وتطور علومها، ودروها في حمل مضامين القرآن الكريم. ومن ذلك الأعمال المنسوبة إلى أبي الأسود الدؤلي، وابن أبي إسحق الحضرمي، وعيسى بن عمر، والفراهيدي، وسيبويه، وابن جنّي، والجاحظ، والجرجاني.

واللغات عند ابن خلدون مَلَكات صناعية؛ أي يجرى بناؤها وتعلُّمها بالاكتساب،[1] والملكات تتحقق للإنسان بتكرار قيامه بالفعل حتى تصبح الملكة صفةً راسخة. وهذه الملكة هي التي تكسب المتكلم باللغة والمستمع إليها، قدرة يميز بها الصواب والخطأ، اعتماداً على ما جرى عليه معهود الجماعة اللغوية، دون حاجة إلى القواعد.

وفي بيان العلاقة الوجودية بين الفكر، والعلم، واللغة، نستذكر جهود كثير من علماء المسلمين في التمييز بين الوجود العيني، والوجود

= Tradition From Socrates To Saussure (History of Linguistic Thought), Vol. 1, Routledge; 2 edition, 1997, pp. 21-28.

والكتاب يأخذ نصوصاً من أعمال الفلاسفة السابقين ويناقشها بقدر من التفصيل، من حيث بيان دور اللغة في الفكر الإنساني والمجتمع. ويبدأ بطبيعة الحال بمناظرات سقراط التي دونها تلميذه أفلاطون، ثم ينتقل إلى أعمال أرسطو، ويشير إلى الكتاب المقدس Bible، ثم يأخذ في عرض جهود أعلام الفكر اللغوي في القرون الوسطى التاسع عشر، ويواصل في الجزء الثاني من الكتاب مناقشة الجهود التي تمت في القرن العشرين.

(١) وبذلك يفنّد ابن خلدون الرأي القائل بالسليقة والوراثة، ودور الجنس والعِرْق في تحديد طبيعة اللغة أو إتقانها.

الذهني، والوجود اللساني، ونختار من هذه الجهود قول أبي حامد الغزالي: "فنقول في بيان حدِّ الاسم وحقيقتِه: إنَّ للأشياء وجوداً في الأعيان، ووجوداً في الأذهان، ووجوداً في اللسان؛ أما الوجود في الأعيان فهو الوجود الأصلي الحقيقي، والوجود في الأذهان هو الوجود العلمي الصوري، والوجود في اللسان هو الوجود اللفظي الدليلي."[1]

ثانياً: البيان بين الفكر واللغة

البيان لفظ أثير في القرآن الكريم، ورد مع مشتقات "بان" في نحو مائتين وسبعة وخمسين موقعاً (٢٥٧) بصيغ اسمية وفعلية عديدة، فالقرآن الكريم بَيَانٌ، وتِبْيَان، كتاب مبين: وقد أنزل بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وآياته بينات، وكلُّ رسول أرسله الله جاء بلسان قومه ليبين لهم... وهكذا.

والتفكّر في الدلالات التي وردت فيها مواقع البيان في القرآن الكريم تؤكد أنه ليس طلاسم وأساطير مجهولة المعاني والدلالات، بل هي آيات "بيّنات" واضحة ظاهرة مفهومة، جاءت باللسان الذي يفهم أصحابُه معانيه، ومع ذلك فقد جاءت في مستويات من الفصاحة بلغت حدَّ الإعجاز.

---

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **المقصد الأسمى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، قبرص: الجفات والجابي، ١٩٨٧م، ص٢٥.

وكان الإمام الشافعي من أوائل من أسهب في الحديث عن البيان القرآني، وذلك في كتابه الأصولي الفذّ «الرسالة»، فبدأه بقوله: "والبيان اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع."[1] ثم فصّل البيان للأحكام في القرآن في خمس مراتب، بعضها أوضح بياناً من بعض.

وفي تفصيل هذا المعنى وصلته بطرق الدلالة اللغوية عليه يضع الجاحظ الدلالة في خمسة أصناف، فيقول: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى... وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياءَ، لا تنقص ولا تزيد: أوَّلُها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد،[2] ثم الخطّ (أي الكتابة)، ثم الحال التي تسمى نصبةً." [3]فجمع بذلك علاقة الفكر والمعاني بأصناف اللغة منطوقة – مسموعة، ومرئية ومحسوبة، ومكتوبة.

وقد أورد الخطيب البغدادي حديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ "قيِّدُوا العلْمَ بالكتابة" بست روايات بألفاظ متقاربة. ومنها رواية عن عبد الله بن عمرو: "أنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: "قيِّدوا العلم" قلت: يا

---

(١) الشافعي، محمد بن إدريس. **الرسالة**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت.)، ص ٢١.

(٢) لغة الحساب بإشارات أصابع اليد تسمى حساب اليد.

(٣) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٧، ١٩٨٨م، ج١، ص ٧٦

رسول الله وما تقييده؟ قال: الكتاب."[1]

فالكتابة، لها مقام متميز في فنون البيان اللغوي، ويُعلي ابن خلدون من شأن الكتابة، فيشير إلى أنَّ الكتابة من الصناعات الشريفة. ويقول: "وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورافعة رتب الوجود للمعاني..."[2]

ثالثاً: نظريات العلاقة بين الفكر واللغة

الفكر فاعلية نفسية واجتماعية ولغوية، ولذلك فإنه موضوع لدراسات علم النفس وعلم الاجتماع وعلم اللغة، فضلاً عن تطبيقات هذه العلوم في علوم أخرى عديدة، مثل الإعلام والسياسة والاقتصاد، إلخ. وقد كانت العلاقة بين الفكر واللغة موضوعاً مهماً من موضوعات الفلسفة، منذ بدايات عهدها، فالمنطق وهو فرع من فروع الفلسفة هو علم دراسة التفكير، واللغة أداة الإفصاح عن الفكر وهو المعاني التي يقود إليها التفكير. وتأخذ اللغة مكاناً بارزاً في

---

(١) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. **تقييد العلم**، صدّره وحققه وعلّق عليه: يوسف العش، حلب، سورية: دار الوعي، ١٩٧٥م، ص ١١٦.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ج٢، ص ٨٤٦.

دراسات علم الاجتماع وعلم النفس ونظريات هذين العلمين على وجه التحديد. والاطّلاع على المقولات الإجمالية لهذه النظريات قد يكون مفيداً إذا أمكن وضعها في البنية الفكرية المستقرة للإنسان المسلم، القادر على التعامل معها بنظرة تحليلية نقدية، وفق منهجية التكامل المعرفي التي يستمدها من رؤية العالم الإسلامية، وهذا ما قام به عالم النفس الإسلامي "مالك بدري" في عدد من دراساته في علم النفس، وممارساته في العلاج النفسي. وهو في موضوع العلاقة بين اللغة والفكر لا يختلف كثيراً مع علماء النفس الآخرين في التأكيد على وجود رابطة قوية بين الفكر الإنساني واللغة؛ ذلك: "أن اللغة عند الإنسان ليست وسيلة للتخاطب والاتصال فحسب، بل هي في الحقيقة النظام الأساسي الذي يستخدمه الإنسان في التفكير."[1]

ملخص لعدد من نظريات العلاقة بين الفكر واللغة

الرقم	النظرية	اسم العالم	وفاته	مقولات النظرية
١-	السلوكية	واطسون- سكنر	١٩٥٨ ١٩٨٥	اللغة نوع من السلوك، يكتسبه الفرد عن طريق التقليد والتعزيز والتكرار
٢-	الإبستمولوجيا التكوينية	بياجيه	١٩٨٠	اللغة تاريخ الأفكار، تنمو اللغة من النمو البيولوجي، الفكر قبل اللغة

(١) بدري، مالك. **التفكر من المشاهدة إلى الشهود؛ دراسة نفسية إسلامية**، مرجع سابق، ص٢٧-٢٩.

٣-	الحتمية والنسبية اللغوية	سابير- وورف	١٩٣٩ ١٩٤١	وظيفة اللغة: التواصل والتكرار، اللغة تحدد التفكير، بنية النظام اللغوي تحدد رؤية العالم
٤-	الوقف البيولوجي المشترك	تشومسكي	...	اللغات لها مستويات سطحية مختلفة ومستوى عميق متشابه، أساس فطري مشترك لدى البشر

ويبدو أن النظريات المتعاقبة التي حاولت فهم العلاقة بين اللغة والفكر، سوف تستمر، وليس من المتوقع أن تحسم الموضوع نظرية واحدة، ذلك أن العلماء الذي يبحثون الموضوع يأتون من خلفيات مختلفة تنتمي إلى علوم الفلسفة والاجتماع والنفس. وأن التحليل النظري والتجريب العملي في الموضوع، لا يخلو من الاعتماد على عناصر مفيدة في فهمه، لكنها في الوقت نفسه غير كافية، فكل نظرية تفسر جانباً من الموضوع، ولا تفسر الموضوع كله. ويبدو أن الموضوع سيبقى مفتوحاً للاجتهاد والحوار والجدل، وسوف يواصل علماء الطبيعة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع بحثهم في مسألة العلاقة بين الفكر واللغة سواءً أكانوا ينطلقون من فلسفة طبيعية واجتماعية بحتة دون النظر إلى هداية الوحي الإلهي، أم كانوا يأخذون بالحسبان هذه الهداية ويودون معرفة المزيد من العلم في ظلال هذه الهداية. لكن الذي نستطيع الاطمئنان إليه في خاتمة الحديث عن العلاقة بين الفكر واللغة، مجموعة من المبادئ التي ربما لا يقع حولها خلاف كبير:

- ليس من السهل أن نتخيل فكراً بشرياً دون تعبير لغوي عنه، وليس من السهل أن نستبعد أثر الفكر في إغناء اللغة، فالعلاقة بين الفكر واللغة علاقة تبادلية تكاملية.
- نحن نؤمن أن الله سبحانه خلق الإنسان الأول؛ آدم أبا البشر، ثم زوده بالملكة اللغوية بكيفية معينة ليس من السهل أن نتعرف عليها بقدر من اليقين.
- الملكة اللغوية جزء من الخلق الإلهي الفطري الموروث "التصميم" في الكيان البشري، وهي ترتبط بأدوات السمع والبصر والنطق، وكلها مهيأة للقيام بأدوار تتصل باللغة والفكر. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].
- من المعقول أن نتخيل أن اللغة البشرية كانت في أول عهدها لغة واحدة، ثم توزع الناس في مناطق جغرافية منعزلة، فتباعدت اللهجات، ثم تطورت إلى لغات متمايزة.
- الإنسان في كل العصور كان يتعلم اللغة ويعبر بها عن فهمه لما يحيطه به، عن طريق ما يسمعه في البيئة اللغوية التي ينشأ فيها.

رابعاً: الفكر والتّرقي في المهارات اللغوية

اللغة وسيلة تواصل وتعبير وتفكير. وبقدر ما يملك الفرد من مفردات اللغة وتراكيبها ونصوصها، يكون لديه المرونة في صياغة أفكاره والتعبير عنها بوضوحٍ، ونفاذِ حُجَّةٍ، وقوةِ تأثير. ويكتسب

الإنسان كثيراً من عناصر الملكة اللغوية من البيئة الاجتماعية الغنية التي ينشأ فيها. ولكنَّ وَعْيَه على ضرورة النموِّ والترقي في اكتساب هذه العناصر، يزيد في إمكانية استفادته من تلك البيئة، ويحفزه على استخدام وسائل متعددة في تحقيق هذا النمو والترقي.

وفي حالة اللغة العربية يعدّ تعلّم القرآن الكريم تلاوة وحفظاً من أفضل الطرق والوسائل لتقويم اللسان وضبط الألفاظ وإغناء الأفكار، والترقي بمعاني الكتابة وألفاظها. وقد أوضح ابنُ الأثير أثرَ القرآن الكريم في تنمية الملكة اللغوية في عدد من المواقع في كتابه "المثل السائر"، لعل أكثرها وضوحاً قوله: "إذا عَرَفَ مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن الكريم، اتَّخَذَه بَحْراً يستخرج منه الدرر والجواهر، ويُودعها مطاوي كلامِه، كما فَعلْـتُه أنا فيما أنشأتُ من المكاتبات، وكفى بالقرآن الكريم وحْدَه آلةً وأداة في استعمال أفانين الكلام."[1] ومن ذلك ما أورده عن حفظ القرآن الكريم؛ إذ يقول: "الكاتب إذا أحبَّ الترقِّي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة، فإنَّه يحتاج إلى أشياء كثيرة، قد ذكرتُها في صدر كتابي هذا، إلا أنّ رأسَها وعمودَها وذِرْوَةَ سنامِها ثلاثةُ أشياء، هي حفظ القرآن الكريم، والإكثار من حفظ الأخبار النبوية، والأشعار."[2]

---

(١) ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د. ت.)، ص٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٢.

والتفاعل الفكري بين الناس يلزمه استعمال وسائله المختلفة التي تؤدي كلٌّ وسيلة دوراً لا تؤديه الوسيلة الأخرى. فهذا التفاعل مثلاً لا يكفي فيه الاقتصار على المشافهة وإلقاء المحاضرات، ولا يكفي فيه الاقتصار على الكتابة وتبادل النصوص المكتوبة، فالمشافهة والمكاتبة أمران متكاملان؛ لأنَّ كلاً منهما يؤدِّي دوراً مختلفاً عن الآخر. وتشير دراسات علم اللغة التطبيقي وعلم اللغة الاجتماعي إلى أنَّ أصل جميع اللغات هو الخطاب الشفاهي. ومع أنَّ الأعراق البشرية طورت آلاف اللغات، فإنّ القليل منها هو الذي بقي؛ لأنَّ اللغات التي اختفت لم تكتب أبداً. وتقرر هذه الدراسات أنَّ "الأصل الشفاهي للغة سمة لاصقة بها... والكتابة تعطي اللهجةَ قوةً تنِدُّ عن تلك التي تكون لأية لهجة شفاهية خالصة."(١)

وتظهر قيمة الكتابة في أثرها الباقي مع الزمن، وربما يستمر تأثيرها حتى لو تم نقض محتواها، وتفنيده تماماً: "لكن المؤلف لا يمكن الوصول إليه في أي كتاب، فليس ثمة طريقة مباشرة لدحض نص، فحتى بعد التفنيد الكلي والمدمر لأفكار الكتاب، يظلُّ النص يقولُ ما قالَه من قبلُ تماماً. وهذا أحد الأسباب لشيوع عبارة "الكتاب يقول"، بمعنى أنَّ القول صحيح، وهو أيضاً أحد الأسباب التي من

(١) أونج، والتر ج. **الشفاهية والكتابية**. ترجمة: حسن البنا عز الدين، مراجعة: محمد عصفور، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، رقم (١٨٢)، ١٩٩٤م، ص ٥٤.

أجلها أحرقت الكتب، والنص الذي يقول ما يعرف العالَم كلُّه أنه باطل، سيظل يقول هذا البطلان إلى الأبد ما بقي النص، فالنصوص عصيّة بطبيعتها."[1]

وقد طور الإنسان "تكنولوجية المشافهة والكتابة حتى أصبحت متاحة للاستماع والقراءة في أي وقت وبصورة متكررة، بل وتكنولوجيات وأساليب جديدة تماماً، تتيح للمستمع أو القارئ أن يتفاعل من المواد المسموعة والمقروءة، فيطلب التوضيح، أو يلجأ إلى المناقشة والموافقة أو الاعتراض، وقد تمّ ذلك كله مع تطور أساليب النشر الإلكتروني للمحاضرات والخطب، وللمقالات والكتب. وليس ثمّة شك في أنَّ على المهتم بالتفاعل الفكري، مثقفاً كان، أو مفكراً، أو داعية، أو مصلحاً، أن يلجَ هذه الساحات المفتوحة ويكونَ له فيها نصيبٌ، تأثُّراً وتأثيراً.

خامساً: العبث الفكري واللّغوي

من الضروري الوعي بالجهود التي تستهدف العبث بالفكر واللغة؛ ذلك أنّ مضامين اللغة هي معان تتفاوت في قيمتها، وتتفاوت في مصداقيتها، ويكون هذا التفاوت أحياناً بحسب مستعمل اللغة ومراده منها، فالعبارة قد تكون صادقة، وقد تكون كاذبة، وقد يكون الكذب جهلاً، وقد يكون قصداً. والمتكلم يختار ألفاظ اللغة بصورة

(١) المرجع السابق، ص ١٥٨.

تعبّر عن غرضه النبيل أو الخبيث، وقد يكون لهذه الألفاظ ظاهر صريح، أو باطن خفيّ، وقد تجد بعض الناس يؤوِّلُون ألفاظ اللغة فيحرفون الكلم عن مواضعه، ويمارس هذا العبث وسوء القصد مفكرون وكتاب وحكومات ومؤسسات دولية عند استخدام مصطلحات وألفاظ ورسومات وصور، وتحميلها معاني معينة، لتحقيق أهداف فكرية أو سياسية. والأمثلة على ذلك في جهود الأمم المتحدة والإعلام المحلي والعالمي المعاصر كثيرة.

لقد أصبحت أساليب العبث الفكري واللغوي تستخدم أنواعاً متعددة من المؤثرات التي تصل في قدرتها إلى حد برمجة العقول وغسيل الأدمغة وتقليب القلوب! إن ذلك لا يعني -بطبيعة الحال- أن جميع الناس في أي مجتمع يتنازلون بسهولة عما ترسَّخ في قناعاتهم وأعرافهم لعمليات التأثير اللغوي في النفوس؛ إذ من المتوقع أن يكون كثير من الناس على درجة من الوعي بحيث يدركون مقاصد الخطاب اللغوي وأهدافه، فيرفضون ويقاومون ما لا ينسجم مع قناعاتهم الراسخة.

سادساً: الكلام وحديث النّفس

من موضوعات العلاقة بين الفكر واللغة، التمييز الذي قدمه علماء الكلام المسلمون، بين الكلام الحسيِّ، والكلام النفسيِّ. ومقولة الكلام النفسي أساساً جاءت من وصف القرآن الكريم بأنه كلام الله، ومن ثم تقرير التباين بين كلام الله وكلام البشر، فالله سبحانه "ليس

كمثله شيء". فالذين يقولون بالكلام النفسي وهم الأشاعرة على وجه التحديد، يعنون به الكلام الذي يناسب الذات الإلهية المتعالية عن الحدوث والفناء، فهو كلام لا يتكيف بصوت أو هيئة، وإنَّما هو صفة قديمة غير حادثة. لكنَّ البحث في الكلام النفسي انتقل إلى الكلام البشري، وانشغل به عدد من العلماء منهم: عضد الدين الإيجي (ت٧٥٦هـ)، وسعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـ)، والشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ).[١] فربطوا "بين الموجود الكلامي الحسي وتفاعلات نفسية وعقلية عميقة، وتشي بما وصلت إليه أنظارهم من قدرة معرفية على تجاوز ظواهر اللغة، ومحاولة تلمس مصادر الموجود الكلامي في مساحات وراء الحس، ولا يبعد أن نعدّ هذه البصائر اللسانية مقدمة لافتراض وجود حقيقة نفسية psychological reality لأنظمة الكلام الإنساني وقوانين هذا الكلام ...[٢]

سابعاً: الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية وأثرهما في الفكر والثقافة والهوية

تفاوتت آراء الباحثين العرب حول دلالة مصطلح الثنائية اللغوية Bilingualism ومصطلح الازدواجية اللغوية Diglossia نظراً

(١) الزبن، عماد أحمد. **التفكير اللساني عند علماء العقليات المسلمين**، عمان: دار النور المبين للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م، ص ٣٠٧-٣٢٥.

(٢) وقد تكون هذه البصائر شبيهة بما قال به تشومسكي عن الأساس الفطري والكليات اللغوية.

لاعتمادهم على ترجمة المصطلح الأجنبي للمفهومين، فقد لوحظ أن اللغات الأوروبية التي يعود إليها الباحثون العرب تستخدم المصطلح بطريقة غير منتظمة التحديد.[1] ويبدو أن الاتجاه الأقرب إلى الدلالة المباشرة هي أنّ الازدواجية اللغوية تعني وجود مستويين لغويين للغة الواحدة؛ مثلاً اللغة العربية الفصحى والعامية. وهي صفة للمجتمع بصورة عامة، تترسخ عبر فترة من الزمن لا تقل عن ثلاثة أجيال، أما الثنائية اللغوية فهي تعني وجود لغتين مختلفتين، لغة وطنية ولغة أخرى، وقد تكون هذه اللغة الأخرى، لغة أجنبية تستعمل من قبل أفراد عند الحاجة أو في مجالات ضيقة، أو لغة ثانية تستعمل على نطاق واسع في المجتمع، أو ممن اكتسبوا الثنائية اللغوية عن طريق النشأة في بيئة ثنائية اللغة أو عن طريق التعليم.[2]

---

(1) Chin, Ng Bee and Wigglesworth, Gillian. *Bilingualism*, New York, Rutledge Applied Linguistic. 2007, pp 5-8. See also:

- Myers-Scotton, Carol. Multiple *Voices: An Introduction to Bilingualism,* New York: Blackwell Publishing Ltd, 2006, pp Chapter 2 on Dialect pp. 16-34, Chapter 3 on Bilingualism pp. 35-66.

– محمود، إبراهيم كايد. "العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية"، **المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الإنسانية والإدارية)**، المجلد الثالث، العدد الأول اذو الحجة ١٤٢٣ / مارس ٢٠٠٢م)، ص ٥٣–١٠٨.

(٢) الموسى، نهاد. ما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون، ندوة الازدواجية في اللغة العربية، عمان: الجامعة الأردنية ومجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٨م، ص ٨٤.

وثمة دراسات كثيرة حول الازدواجية اللغوية، والثنائية اللغوية يعرفها أهل الاختصاص في الدراسات النفسية واللغوية والتربوية. وقد تنوعت هذه الدراسات تنوعاً كبيراً في مرجعياتها الفلسفية، والاجتماعية، والسياسية، وفي مناهجها النظرية والميدانية المسحية أو التجريبية، وفي نتائجها التي تكشف عن آثار سلبية أو إيجابية على تعلم الفرد وتشكيل شخصية وانتمائه، وعلى المجتمع وتماسكه واستقرار هويته... إلخ.

والذي يهمنا هنا هو أثر هاتين الظاهرتين على عملية التفكير، ومستوى الدقة والوضوح في التعبير عن الأفكار بصورة تيسر فهمها وتمثلها، ففي مجال الازدواجية اللغوية نجد دراسات جادة تؤكد أن اللهجة "العامية قاصرة عن أن تفي بالتعبير عن الأمور الثقافية والفكرية والفلسفية، وعلى المتكلم في هذه المواضيع أن يعود إلى الفصحى إذا أراد التعبير عما يقول بشيء من الدقة."[1]

وتذكِّرُنا الثنائية والازدواجية اللغوية بالازدواجية الفكرية التي تمثل خطراً على الهوية الفكرية للمواطن في مجتمعنا المعاصر الذي يعيش في محيط من الثقافة تشكله أجهزة الإعلام والتواصل المعاصر. وهي ثقافة تسهم إسهاماً عميقاً في طريقة تفكير الإنسان. ومع أنَّ

(١) الزغول، محمد راجي. الازدواجية في اللغة العربية، ندوة الازدواجية في اللغة العربية، عمان: الجامعة الأردنية ومجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٨م.

المواطن في مجتمعاتنا ينشأ ضمن هوية وانتماء ديني تقليدي يتحدث عن المثال الذي ينبغي التوجه إلى تحقيقه، فإن الثقافة المعاصرة تكرس واقعاً بعيداً عن هذا المثال، تغلب عليه سطوة المادة والمال والسياسة.

إن التنبّه إلى مخاطر الثنائية والازواجية اللغوية لا يعني بالضرورة نبذ تعلُّم لغة أو لغات أجنبية، لما في ذلك من أثر في توسيع ثقافة الإنسان المفكر، أو الذي يتحدث بالفكر. لكن كثرة استخدام المصطلح الأجنبي في الحديث، لا سيما الشفاهي ليس أمراً محموداً، ويُعدُّ عجزُ الشخص عن التعبير بالعربية عن الفكرة والتجاؤه إلى المصطلح الأجنبي نقصاً غير لائق في حقِّه.